"دول الخليج وروسيا عام ٢٠١٦: التحولات وتأثيرها على المستقبل"

فرص التفاهمات الروسية الخليجية

(آراء حول الخليج، جدة، العدد ١١٤، ديسمبر ٢٠١٦)

د. نـورهان الشيـخ*

حملـت الأشـهر الأولـى مـن عـام ٢٠١٦ تفـاؤلاً باسـتمرار التطـور الـذى بـدأ قبـل عـام فـى العلاقـات الخليجيـة الروسـية. فقـد قـام أميـر قطـر، الشـيخ تمـيم بـن حمـد آل ثـاني، بـأول زيـارة لـه لروسـيا فـى ينـاير، وعكسـت الزيـارة تطـور هـام فـى العلاقـات القطريـة الروسـية، التـى ظلـت لسـنوات يخـيم عليهـا التـوتر فـى ضـوء تنـاقض مواقـف البلـدين إزاء عـدد مـن القضـايا الإقليميـة. فقـد أكـد أميـر قطـر خلالهـا أن "لروسـيا دور هـام وقـوي فـي العـالم وخاصـة فـي الشـرق الأوسـط، لثقـل روسـيا ولأهميتهـا"، وأن الدوحـة تعـول "علـى الأصـدقاء فـي روسـيا فـي حـل مسـألة معانـاة الشـعب السـوري وفـى التسـوية السياسـة التـي يجـب أن تكـون وفـق مطالـب الشـعب السـوري"، وهـو مـا عـد تغيـراً نـوعى، علـى الأقـل فـى السـلوك اللفظـى ولغـة الخطـاب القطـرى تجـاه موسـكو. وفـى ود بـين قيـادة البلـدين، أهـدى الـرئيس الروسي فلاديمير بوتين، أمير قطر، صقراً مدرباً.

أعقـب ذلـك زيـارة وزيـر الخارجيـة القطـري، محمـد بـن عبـد الـرحمن آل ثـاني، لموسـكو فـى مـايو، والتـى أكـد خلالهـا أن "الدوحـة تشـاطر موسـكو موقفهـا حـول ضـرورة الحفـاظ علـى وحـدة أراضـي سـوريا، مشـددا علـى ضـرورة توحيـد الجهـود لإنهـاء الأزمـة السـورية المسـتمرة منـذ ٥ سـنوات"، وأن زيارتـه إلـى روسـيا تـأتي فـي سـياق البحـث عـن سـبل لإنقـاذ عمليـة التسـوية السياسـية بسـوريا. سـبق ذلـك اتصـال هـاتفى بـين الـرئيس بـوتين والأميـر تمـيم فـى ١٩ أبريـل، تضـمن تبـادل وجهـات النظـر حـول عـدد مـن القضـايا ذات الاهتمـام المشـترك. كمـا استضـافت الدوحـة اجتماعـات للـدول المنتجـة للـنفط فـى فبرايـر ومنتصـف أبريـل لمناقشـة خفـض حجـم الانتـاج لتحسـين الاسـعار، وبـدا أن هنـاك تفاهمـات روسية قطرية فى هذا الخصوص.

كمـا كـان لزيـارة ملـك البحـرين، حمـد بـن عيسـى آل خليفـة، لروسـيا فـى فبرايـر أهميتهـا، حيـث أكـدت موسـكو والمنامـة علـى تطـابق مواقـف البلـدين حـول قضـايا عـدة فـى

---

* أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة.

مقدمتها مكافحة الإرهاب وتسوية النزاعات في الشرق الأوسط بالوسائل السلمية وعدم السماح بخطوات تؤدي إلى تفكيك الدول، وعدم إسقاط الحكومات الشرعية في المنطقة. وأكد وزير الخارجية البحريني خالد بن أحمد آل خليفة، أن ملك البحرين يقدر دور الرئيس بوتين والدولة الروسية بشكل عام في مساعدة الشعب السوري للخروج من هذه المحنة الصعبة، وأن المشاكل الطائفية في الشرق الأوسط أدت إلى تهجير ولجوء مئات الآلاف من سكان بعض الدول، وأن دول الخليج ستأخذ الرؤية الروسية للأمن في المنقطة وتطوراتها بعين الاعتبار. وأهدى الرئيس الروسي فلاديمير بوتين لملك البحرين جوادا أصيلا من سلالة "أخال تيكي"، فيما قدم له العاهل البحريني سيفا ثمينا صنع خصيصا بناء على طلب شخصي من الملك من الفولاذ الدمشقي ومقبض وقراب من الذهب والفضة، فى جو من الود الشخصى بين القيادتين.

وعلى الصعيد الاقتصادى، يبرز الاتفاق السعودي الروسي على التعاون لضمان الاستقرار في أسواق النفط كأحد أبرز التطورات خلال عام ٢٠١٦، ليس فقط على مستوى العلاقات الخليجية الروسية وأنما عالمياً باعتبار البلدين أكبر منتجي النفط في العالم. وكانت الدولتان قد أصدرتا بيانا مشتركا على هامش قمة مجموعة العشرين، التي عقدت في مدينة خانجو الصينية فى سبتمبر، تضمن اتفاقهما على تشكيل مجموعة عمل لمراجعة العوامل المؤثرة في قوى السوق والخروج بتوصيات تسهم في ضمان الاستقرار في أسواق النفط. ومهد التوافق بين البلدين إلى اتفاق الجزائر الذى وُصف بالتاريخى بين الدول الأعضاء فى منظمة "أوبك" فى سبتمبر، والذى تضمن تخفيض إنتاج النفط إلى مستوى يتراوح بين ٣٢,٥ و٣٣ مليون برميل يوميا مما أدى إلى ارتفاع أسعار النفط بنحو ٦%. وهو أول اتفاق للمنظمة على خفض الإنتاج منذ عام ٢٠٠٨ عقب انهيار السوق بسبب تخمة المعروض.

كما عُقدت الدورة السادسة من اللجنة الحكومية الروسية الإماراتية المشتركة فى نوفمبر، وقام مساعد وزير الخارجية الإماراتي للشؤون الاقتصادية والتجارية؛ السيد محمد شرف، على رأس وفد إماراتي رفيع المستوى، ضم ممثلين عن مؤسسة الإمارات للطاقة النووية، بزيارة روسيا، وأكد خلال الزيارة على أن دولة الإمارات تبحث مع روسيا سبل دعم التعاون الاقتصادي المشترك وآفاق تطويره بين البلدين، وأن مفاوضات جارية بين الطرفين للوصول لاتفاقات للتعاون فى المجال النووى تضمنت عقد اجتماعات مع نظرائه من شركة "روس آتوم" الروسية للطاقة الذرية.

وأعلنت شركة "مبادلة" الإماراتية للتنمية، عن اتفاقها مع الصندوق الروسى للاستثمارات المباشرة على التعاون المشترك في مشاريع ذات أولوية لروسيا، في مجالي الزراعة والغذاء، بقيمة ١٩ مليار روبل وهو ما يعادل ٣٠٠ مليون دولار، بالإضافة إلى استثمار حوالي ١٠ مليار روبل في مجموعة شركات افكو، وهي الشركة المتخصصة في منتجات الزيوت والدهون في الاتحاد الاقتصادي الأوراسى الذى تقوده روسيا ويضم خمس دول هى: روسيا وكازاخستان، وبلوروسيا، وأرمينيا، وقرجيزستان. ومن أوجه التعاون الاستثمارى الهام بين الجانبين الخليجى والروسى أيضاً ما أشار إليه أندرية كوستين، رئيس المجموعة المالية الروسية، فى ٢ سبتمبر أن روسيا ستبيع حوالى ٢٥% من مطار "بولكوفو" الروسى لمستثمرين قطريين.

إلا إن التطورات والتفاهمات السابقة لم تحل دون حالة عامة من الفتور النسبى خيمت على مجمل العلاقات الروسية الخليجية، والسعودية خاصة، خلال عام ٢٠١٦، رغم الإنفراجة التى شهدتها الأخيرة فى أعقاب زيارات ولى ولى العهد ووزير الدفاع السعودي الأمير محمد بن سلمان لروسيا عام ٢٠١٥، وما أعقبها من تطورات على صعيد العلاقات الثنائية، والتعاون المشترك، والتفاهمات بشأن تسوية الأزمة السورية، والتى ولدت فى مجملها إعتقاداً بإنفراجة وشيكة فى الاستقطاب الذى ساد المنطقة. ولكن سرعان ما تبدلت المعطيات بالتدخل الروسى فى سوريا فى ٣٠ سبتمبر من نفس العام. فقد قرأت دول الخليج التدخل الروسى فى سوريا على إنه دعم مباشر لبشار الأسد ونظامه، وأنه أضر بالمسار الذى كانت تأمله للأزمة والرحيل الذى بدا وشيكاً للأسد، ومن ثم عاد الفتور إلى العلاقات الروسية الخليجية. وفور بدء الضربات الروسية أعربت المملكة العربية السعودية عن قلقها البالغ من جراء العمليات العسكرية التي قامت بها القاذفات الروسية في سوريا، وطالبت بوقفها الفوري. ووصف وزير الخارجية السعودي عادل الجبير، الضربات الروسية بأنها "تصعيد وموضوع خطير جداً".

من ناحية أخرى، ورغم تأكيد موسكو والرياض تمسكهما ببيان "جنيف -١" كأساس للتسوية في سوريا، إلا الخلافات بينهما وصلت حد التناقض، وتمحورت حول قضيتين رئيسيتين، أولهما رحيل بشار الأسد عن السلطة، والذى تعتبره الرياض شرط مسبق لأى تسوية سلمية بشأن سوريا، وتصر أن يكون رحيله فورى ودون شروط، فى

حين ترى روسيا أن بقاء الأسد ضرورى فى المرحلة الانتقالية، وأنه حجر زاوية فى محاربة الارهاب، وأن للأخير الأولوية على ما عداها من قضايا أخرى، وأن غياب الأسد ورحيله المفاجأ سيؤدى حتماً إلى فراغ سياسي ستملئه الجماعات الارهابية، وقد يؤدى إلى تكرار السيناريو الليبى عقب مقتل معمر القذافى، وتتمسك موسكو بأن رحيل الأسد فى النهاية أمر يقرره الشعب السورى وأنه متروك لإرادة السوريين. وثانيهما، الخلاف بين الجانبين فيما يتعلق بالتحديد الدقيق للجماعات الارهابية، وإدراج روسيا لجماعات تعتبرها دول الخليج ضمن جماعات المقاومة المسلحة فى سوريا.

وقد أدى ذلك إلى تعثر عملية التسوية السلمية وفشل جنيف٣ مطلع عام ٢٠١٦، واتهامات متبادلة بين الجانبين حول المسئولية عن ذلك. فقد شاركت الهيئة العليا للمفاوضات المنبثقة من المعارضة السورية، على شرط تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٢٥٤ الصادر بتاريخ ١٨ ديسمبر ٢٠١٥، والذي ينص على "رفع الحصار عن المناطق المحاصرة وإدخال المساعدات الإنسانية وإطلاق سراح المعتقلين، وخصوصًا النساء والأطفال، ووقف الهجمات الجوية والبراميل المتفجرة على المدنيين." وعقب تأجيل المحادثات يوم ٣ فبراير، أكدت الهيئة أن وفد المعارضة لن يعود إلى جنيف ما لم يتم إحراز تقدم في المجالات الإنسانية في سوريا، واعتبرت أن تأجيل المباحثات "فرصة للمجتمع الدولي من أجل الضغط على النظام وحلفائه للالتزام أولًا بتنفيذ المتطلبات الإنسانية للشعب السوري من خلال فك الحصار، وإطلاق سراح المعتقلين، ووقف القصف، وإدخال المساعدات الإنسانية". ورحبت بأي جهود دولية لتحقيق انتقال سياسي للسلطة دون أن يكون الأسد طرفًا فيه. مُتهمة "الحكومة السورية والروسية بالعمل على إفشال المباحثات وتكثيف العمليات العسكرية والغارات الجوية"، واتهمت نظام الأسد، بدعم من روسيا، باستخدام محادثات جنيف كغطاء عسكري من أجل مواصلة تقدمه في سوريا، خاصة في الجزء الغربي من البلاد، حيث يرغب النظام في إحكام سيطرته عليه، ويواصل العمليات العسكرية ضد المعارضة وليس ضد تنظيم الدولة الإسلامية.

وحملت الهيئة العليا للمفاوضات الأسد وروسيا مسئولية وقف وتأجيل المفاوضات في جنيف، وهو الموقف الذى دعمته المملكة العربية السعودية التى حملت النظام السوري مسئولية تعليق محادثات جنيف على لسان وزير خارجيتها عادل الجبير، وأعلن أحمد عسيرى، مستشار وزير الدفاع السعودي "أن بلاده مستعدة لإرسال

قـوات بريـة إلـى سـوريا لمحاربـة تنظـيم الدولـة الإسـلامية، إذا وافـق التحـالف الـذي تقـوده الولايات المتحدة."

فـي المقابـل اتهمـت روسـيا "مجموعـة الريـاض" بالسـعي إلـى إفشـال المفاوضـات السورية عبـر طـرح شـروط مسـبقة لبـدئها، وأشـار جينـادى جـاتيلوف، نائـب وزيـر الخارجيـة الروسـي إلـى إن: "محـاولات وفـد الريـاض لتقـويض عمليـة المفاوضـات بذريعـة مواصـلة روسـيا عمليتهـا العسـكرية فـي سـوريا غيـر مقبولـة علـى الإطـلاق، لأن الحـديث يـدور عـن مكافحـة الإرهـاب فـي هـذا البلـد. والذريعـة الثانيـة المتمثلـة بعـدم قـدرتهم علـى المشـاركة فـي المفاوضـات بسـبب الوضـع الإنسـاني المتفـاقم فـي سـوريا، هـي الأخـرى غيـر مجديـة تمامـاً". وأعلنـت المتحدثـة باسـم الخارجيـة الروسـية، ماريـا زاخاروفـا، أن سـبب قـرار "معارضـة الريـاض" بتعليـق مفاوضـات جنيـف يعـود إلـى تحقيـق الجـيش السـوري نجاحـات جدية في شمال محافظة حلب.

تـزامن ذلـك مـع تطـور واضـح فـى العلاقـات الروسـية الإيرانيـة ممـا إدى إلـى تزايـد حالـة التـوتر بـين موسـكو ودول الخلـيج التـى تعتبـر إيـران التهديـد الرئيسـى لأمنهـا القـومى. ففـى الوقـت الـذى أعلنـت الريـاض قطـع علاقاتهـا الدبلوماسـية مـع طهـران علـى خلفيـة الإعتـداء علـى القنصـلية والسـفارة السـعودية فـى إيـران، وصـل التعـاون الاسـتراتيجى بـين موسكو وطهران مستويات غير مسبوقة.

ففـى يونيـو عُقـد اجتمـاع ثلاثـي بـين وزراء دفـاع إيـران وروسـيا وسـوريا فـي طهـران، وأعـرب وزيـر الـدفاع الروسـى عـن شـكره للمبـادرة الإيرانيـة لعقـد اجتمـاع ثلاثـي بـين وزراء دفـاع الـدول الـثلاث، وقـال إن "التصـدي الشـامل للإرهـاب هـو مسـؤولية دوليـة يجـب علـى جميـع الـدول أن تشـارك فيـه لإيجـاد عـالم أكثـر أمنـا." وأكـد ارتياحـه للحـوار والتنسـيق الـذى تـم الاتفـاق عليـه فـي اجتمـاع طهـران، معربـا عـن أملـه بـأن يسـفر الاجتمـاع عـن رفـع مسـتوي التعـاون بـين الـدول الـثلاث فـي مسـيرة مواجهـة الإرهـاب وإحـلال الأمـن والاسـتقرار المسـتديم فـي سـوريا. واعتبـر علـي شـمخاني أمـين المجلـس الأعلـى للأمـن القـومي الإيرانـي، والمنسـق الأعلـى للإجـراءات السياسـية والعسـكرية والأمنيـة الإيرانيـة مـع سـوريا وروسـيا، أن اللقـاء تفرضـه تزايـد التعقيـدات السياسـية والأمنيـة فـي الأزمـة السـورية، واعتبـر

التعاون الوثيق والمؤثر والمتنامي بين البلدان الثلاثة وتيار المقاومة العامل الرئيسي لهزيمة الشبكة الارهابية وتدميرها الملحوظ في المنطقة".

وفى مطلع أغسطس أعلن ديميتري روجوزين نائب رئيس الوزراء الروسي، أن روسيا سلمت إيران نصف صفقة منظومات الدفاع الجوي الصاروخي "إس -٣٠٠" الروسية، وهو ما يثير قلق دول الخليج من أن يؤدى ذلك إلى تغيير فى موازين القوى بالمنطقة ويزيد من قدرة وفاعلية الدفاعات الجوية الإيرانية التى تعانى حالياً من الضعف النسيى وفجوات في التغطية والقدرة. ومن المعروف أن منظومة اس ٣٠٠ من الأنظمة القديرة في العالم فى مجال الدفاع الجوي الصاروخى بعيد المدى، وهى قادرة على صد وتدمير الصواريخ البالستية، ومجهزة برادارات قادرة على تتبع ١٠٠ هدف والاشتباك مع ١٢ هدف في نفس الوقت، ولا تحتاج المنظومة سوى لخمس دقائق فقط لتكون جاهزة للإطلاق، كما إن صواريخها لا تحتاج لأي صيانة طوال فترة عملها. وهى مصممة للدفاع عن المعامل الكبيرة والمنشأت الحساسة والقواعد العسكرية ومراكز الرصد الجوي ضد الضربات المعادية، ومن المتوقع أن توظفها إيران لحماية منشأتها النووية، وتحصين نفسها ضد أى هجمات صاروخية محتملة.

وفى ١٦ أغسطس أقلعت القاذفات الاستراتيجية الروسية من طراز (تي يو-٢٢ أم) و(أس يو-٣٤) من قاعدة "نوجه" فى همدان غرب إيران وقصفت أهدافا لتنظيم داعش وجبهة النصرة في مناطق حلب ودير الزور وإدلب، وهو ما عد تطور بالغ الدلالة خاصة وإنها المرة الأولى التي تستخدم فيها روسيا بلداً ثالثاً لشن غارات في سوريا منذ بدء حملتها العسكرية بها. وبرر الجانبين ذلك بأن نشر القاذفات الروسية في إيران من شأنه تقليص زمن طيران القاذفات بنسبة ٦٠%، وأن طبيعة الطلعات الروسية والأهداف المستهدفة كانت تستلزم ذلك. ومن المعروف أن قاعدة "نوجة" هي ثالث أكبر قاعدة عسكرية في إيران وتستقر فيها الطائرات الإيرانية العسكرية الثقيلة من طراز إف٤ الأمريكية الصنع وميج-٢٩ الروسية الصنع، ويفصلها عن أهداف المقاتلات الروسية في سوريا حوالي ٩٠٠ كيلومتر فقط، الأمر الذي سهل للقاذفات الروسية حمل حوالي ثلاثة أضعاف القنابل التي تستطيع حملها في حال انطلاقها من قواعد روسية.

ورغم الانتقادات التى أطلقها البعض فى البرلمان الإيرانى حول إتاحة قاعدة همدان لروسيا والتى دفعت وزير الدفاع الإيرانى، حسين دهقان، إلى انتقاد موسكو للإعلان عن غاراتها التي انطلقت من همدان، فإن المتحدث باسم وزير الخارجية

الإيرانـــي، بهـــرام قاســـمي، أكـــد علـــى أن "إيـــران لـــيس لـــديها أيـــة اتفاقيـــة بشـــأن اســـتخدام الطـــائرات الروســـية لقاعـــدة نوجـــه العســـكرية فـــي همـــدان"، إلا أن البلـــدين بينهمـــا تفاهمـــات تشـــمل الســـماح لموســـكو باســـتخدام الأجـــواء الإيرانيـــة وتســـهيلات أخـــرى، وأن أي اســـتخدام في المستقبل يعتمد على "الوضع في المنطقة."

وفـــى ٢٨ أكتـــوبر عُقـــد لقـــاء ثلاثـــى بـــين وزراء خارجيـــة ســـوريا وروســـيا وإيـــران فـــي موسكو لبحث تطور الوضع في سوريا عقب الاعلان عن امكانية قيام واشنطن بتوريد أسلحة ثقيلة للمعارضة المسلحة، معتبرين أن لذلك عواقب لا يمكن التنبؤ بها، وأن تصرفات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تزيد من عدم استقرار الوضع في سوريا وتنتهك القوانين الدولية. ورغم أن موسكو ترى أن علاقتها الاستراتيجية مع إيران لا تنتقص من توجهها نحو تعزيز التفاهم والشراكة مع دول الخليج، فإن الأخيرة يساورها الكثير من الشكوك حول تداعيات التعاون الاستراتيجى الروسى الإيرانى على امنها واستقرارها.

وتظل هناك آفاق رحبة للوصول إلى تفاهمات روسية خليجية تمهد لدفع التعاون الروسى الخليجى وإعادة الدفء للعلاقات بين الجانبين، وهناك مدى واسع وقاعدة من المصالح المشتركة التى يمكن الإنطلاق منها نحو هذا الهدف، وقد يكون من مصلحة الطرفين الفصل بين ما هو سياسى وما هو اقتصادى ولو مرحلياً.